



جمهورية السودان
جامعة إفريقيا العالمية
كلية التربية بالتزامن مع اتحاد الجامعات الإسلامية في إفريقيا



ندوة التعليم الإسلامي في إفريقيا (2)

(الماضي، الحاضر، المستقبل)


3-5 جمادى الأولى 1440هـ - 9-11 يناير 2019م
جامعة إفريقيا العالمية - كلية التربية

تحت شعار:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ١٤٣

المجلد الأول

**التعليم القرآني في الجزائر ودوره في ترسيخ
معالم الهوية العربية الإسلامية في عهد الاستعمار
الفرنسي وفي الوقت الراهن، الإنجازات والتحديات**

.....
د. قاسم الشيخ بالحاج 

جامعة الجزائر

.....

راضية:

المستخلص

تناول الباحث تجربة إسلامية التعليم القرآني في الجزائر وفي بوابة جنوبية بالذات، مما يعرف بحاضرة وادي ميزاب، والكشف عن جذوره ومراسل تطوره وأدواره الحضارية في تشكيل هوية الفرد وملاحج التجديد في التعليم القرآني بما يواكب مقتضيات العصر ومتطلباته، وختمت الدراسة بأن التعليم القرآني هو أساس بنيات المجتمع في وادي ميزاب، حيث رسم وشكل ملامح الهوية ومفاهيم عقول الناشئة وغرس قيمها في قلوبهم، من خلال جهود المصلحين شرقا وغربا، وأوصت الورقة بوجود التمسك بهذا النوع من التعليم الأصيل من قبل ولاية الأمور ونشره بين أفراد الأمة وتطويره بما يخدم حاجات الإنسان المعاصر ويستجيب لتطلعاته.

مدخل:

التعليم القرآني سمة من سمات المجتمعات الإسلامية منذ فجر الإسلام إلى اليوم، وقد شهد صورا وأنماطا وأشكالا متعددة في أرجاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه، وكان في ذلك يتفاعل مع حضارات الشعوب والبلدان والأوضاع الدينية والثقافية التي تحكمها وتعيش في كنفها بتغير الزمان والمكان.

تقف هذه الدراسة على تجربة إسلامية للتعليم القرآني في بلاد الجزائر وفي بوابة جنوبه بخاصة؛ مما يعرف بحاضرة وادي ميزاب، لتكشف عن حقيقة هذا التعليم وعن جذوره ومراحل تطوره وعن أدواره الحضارية في تشكيل هوية الفرد وملامح المجتمع.

نستطيع أن نقول إنَّ الفضل يعود لهذا التعليم في حفظ كيان الشخصية الجزائرية، وترسيخ هويتها الإسلامية العريضة، وردَّ العدوان الحضاري الذي قاده الاستعمار الفرنسي لأجل مسخ معالم وقيم هذه الشخصية في بعدها الإسلامي والعربي، ومحاولة النيل من مقومات الإنسان وزعزعة ركائز المجتمع وتشويه هويته.

لقد بذل رجال الإصلاح في الجزائر جهودا مضيئة في سبيل إرساء دعائم هذا التعليم في كامل ربوع الوطن رغم الإمكانات المتواضعة والظروف الصعبة التي وجدوا فيها، وبذلوا جهودا عظيمة لأجل التمكين لهذا التعليم في نفوس أفراد الشعب وإقناعه بضرورة إلحاق أبنائه به، لينالوا حظهم من الحصانة الدينية والأخلاقية.

لقد قاد حركة الإصلاح في الجزائر بشمالها وجنوبها ثلة من الرجال الأفاضل، والعلماء الأوتاد، الذين حركتهم الأوضاع المتردية التي لحقت بشعبهم في مجالات الحياة المختلفة بسبب عامل الاستعمار والتخلف والجهل والفقر، فتيقنوا أن عملية الإصلاح لا بد أن يشرع فيها انطلاقا من بناء جيل ناشئ قوي بدينه ولغته وأخلاقه وعلمه وهويته الإسلامية الجزائرية.

فما مفهوم هذا التعليم القرآني القومي الأصيل في حاضرة وادي ميزاب، وكيف كانت نشأته وتطوره، وما الأدوار التي قام بها في سبيل بناء الإنسان وتشكيل هويته الإسلامية؟

١- المدرسة القرآنية، المفاهيم والمصطلحات:

بعودتنا إلى المصادر والمراجع التي أرخت للحركة الإصلاحية الجزائرية في وادي ميزاب، ووقفنا على ما كتبه عن حركة التعليم والتربية نجد لهم تعريفات عديدة مبنوثة في هذه المصادر حول مفهوم المدرسة القرآنية، كما نجد تسميات عديدة لها، لذا نحن في حاجة إلى ضبط هذه التسمية وضبط مفهومها. مع تعدد تعريفات هذه المصادر، فإننا نستطيع أن نجتمع بينها للحصول على التعريف المتكامل للمدرسة العربية التي عرفتها الحركة الإصلاحية.

يعرفها الأستاذ محمد علي دبور بقوله: «هي مدارس تحفظ القرآن الكريم ومعه ما يجب من العلوم الدينية والعربية وعلوم الحياة وتنشئ نفوساً مهذبة قوية وعقولا متقفة مدركة»^(١).

ويعرفها الشيخ بلحاج قشار بقوله: «هي مدرسة لا علاقة لها بالتعليم الرسمي، يعتمد في بنائها وتكوينها ومعلميها وأساتذتها وتمويلها على إدارة مكونة من البلد الذي تنشأ فيه، وإدارتها هي التي تهئ البرامج»^(٢).

ويعرفها الأستاذ خضير بابوا عمر بقوله: «هي مؤسسة تعليمية عصرية مستقلة استقلالاً تاماً عن التعليم الرسمي، تسعى إلى تحقيق أهداف دينية وتربوية واجتماعية وعلمية»^(٣).

وتعرفها الأستاذة مهدية طلاي بقولها: «هي مدارس تعمل تحت إشراف هيئة العزابة، ويعد نشاط هذه المدارس تكملياً تقوم به، في غير أوقات الدراسة بالمدرسة الرسمية الوطنية، وتقوم المدرسة الحرة الإباضية بتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم، وإعدادهم لتلقي العلم عن شيخ العزابة في مختلف المستويات التعليمية، مبتغية في ذلك تنشئة هؤلاء الصغار تنشئة إسلامية إباضية»^(٤).

(١) محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج ٣، ط ١، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٤٢٩هـ / ١٩٧٨م. ج ٣، ص ٢٠٣.

(٢) بشير مرموري: تعليم البنات في ميزاب بين الأصالة والحداثة، دراسة لميكانيزمات التغيير في الواقع الاجتماعي، رسالة ماجستير، علم الاجتماع، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، س ج: ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص ١٣-١٤.

(٣) لطيفة الحاج موسى: المدارس الحرة في بني يزقن خلال القرن العشرين، مذكرة تخرج، المعهد الجابري، بني يزقن، غرداية، س ج: ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ٣٧.

(٤) مهدية طلاي: المدرسة الإباضية الحرة، دراسة حالة المدرسة الجابرية، مذكرة ليسانس، جامعة الجزائر،

إذا حاولنا القيام بالجمع بين هذه التعريفات نستطيع أن نخلص إلى وضع التعريف الآتي:

المدرسة القرآنية:

مؤسسة تربوية تعليمية اجتماعية للمستوى الابتدائي، تعنى بتحفيظ القرآن الكريم، وتدرّس العلوم العربية والشريعة والحياتية، تسعى لتحقيق أهداف دينية وتربوية واجتماعية وعلمية، وهي تابعة في إدارتها وتمويلها إلى الهيئات العرفية لوادي ميزاب، تشرف عليها جمعية خيرية، وهي مستقلة في برامجها ومقرراتها وموادها الدراسية وسياساتها التعليمية.

كما ينبغي أن نسجل أن هذه المدرسة شهدت عدة مراحل لتطورها بين العهد الاستعماريّ وعهد الاستقلال، وأثر ذلك على تحديد مفهومها وتعريفها، ونسجل هنا أن تعريفنا هذا يتعلق بوجه أخص بمفهوم هذه المدرسة في عهدها الأول وقت الاستعمار.

نأتي الآن لضبط مميزات هذه المدرسة التي سعت الحركة الإصلاحية لإنشاء نماذج كثيرة منها على نطاق واسع خلال الفترة الاستعمارية.

إذا وقفنا مع أطول تسمية لها نقول بأنها:

المدرسة القرآنية العربية العصرية النظامية الحرة:

فماذا تعني كل كلمة في هذه التسمية، وما هي أوجه التميز والتجدد فيها: المدرسة: إشارة إلى أن التعليم ابتدائيّ أوليّ متعلق بالناشئة في مرحلتهم التعليمية الأولى، وعادة ما تكون في سبع سنوات، اتباعاً للتعليم الفرنسي الذي كان فيه سبع سنوات كذلك، وهو يبتدئ من السن السادسة للتلميذ إلى السن الثالثة عشرة من عمره.

القرآنية: إشارة إلى تبنيها تحفيظ القرآن الكريم وعنايتها به، وتعليمها العلوم الشرعية الضرورية التي يحتاج إليها التلميذ.

العربية: إشارة إلى أن التعليم في أساسه عربيّ، يدرّس مواد اللسان العربي، ويعتمد اللغة العربية في تدريس المواد الأخرى، كما أن هذه الكلمة وجدت

لتقابل التعليم الفرنسي.

العصرية: إشارة إلى التطوير الحاصل فيها أو الذي أدخلته الحركة الإصلاحية عليها، الذي استفادت الكثير منه من المدارس التونسية فسارت على نهجه، واقتفت طريقه، ولتميزها عن الكتابات السائدة.

هذا التجديد والتطوير يمكن أن نحصره في الجوانب الآتية:

١ - من حيث المواد المدرسة: إضافة علوم الحياة من حساب وجبر ورياضيات وجغرافيا وعلوم الطبيعة وعلوم الأشياء، والرياضة البدنية.

٢ - من حيث الوسائل: تجهيز المدرسة بالمناضد والكراسي والسبورة والطباشير، وتزويد التلاميذ بالألواح والكراريس والأدوات والكتب، وبقية الأدوات المساعدة للمعلم والتلاميذ للقيام بالعملية التربوية على أحسن وجه.

٣ - من حيث المصادر والمراجع: اعتماد مقررات وبرامج دراسية مشرقية تونسية ومصرية ولبنانية، والتركيز على التجربة التونسية لقربها ولمعابقتها.

٤ - من حيث أساليب التدريس: اعتماد أسلوب الحوار والنقاش وطرح الأسئلة واختبار قدرات التلاميذ، وتنمية مواهبهم، واعتماد أسلوب تحبيب العلم للتلميذ، والمعاملة اللائقة له ومصاحبته ومعاشرته داخل المدرسة وخارجها. واعتماد أسلوب التأثير في سلوكه وأخلاقه بوساطة التربية بالقدوة وغرس الأخلاق في نفسه وطبع شخصية المعلم فيه.

٥ - من حيث الإدارة والتسيير: اعتماد نظام مراقبة التلاميذ ومحاسبتهم على الحضور والغياب والتأخر والانضباط في الوقت. وتنظيم أوقات الدراسة لتصبح بعد الفجر بمقدار ساعتين، وفي الأمسية بمقدار ثلاث ساعات، والدراسة في سائر أيام الأسبوع والتعطل يومي الخميس والجمعة. والتزام المعلم بتدريس قسم واحد لسنة دراسية كاملة، دون انقطاع وسط السنة، أو تغيير عشوائي غير منظم للمعلمين. واعتماد نظام الطبقات أو المستويات، وتقسيم المدرسة إلى سبعة مستويات، يسمى المستوى الأدنى بالمستوى السابع وهكذا صعودا إلى المستوى الأعلى الذي يسمى المستوى الأول. واعتماد نظام الامتحانات والعطل الأسبوعية والسنوية. واعتماد الانتقال والنجاح والرسوب.

النظامية: إشارة وتأكيدا على كونها ذات إدارة مسيرة وذات برامج ومستويات

ونظام متبع محكم، ومراقبة مستمرة للعملية التربوية.
الحرّة: لعل كلمة حرّة ظهرت إشارة وتمييزاً وتفريقاً بينها وبين التعليم الفرنسي الذي كان إجبارياً رسمياً تابعاً للسلطات الاستعمارية الحاكمة، فكان هذا التعليم مقابلاً له بكونه حرّاً، غير تابع لسلطة الدولة، ومستقلاً عنها في إدارته وبرامجه وسياسته التربويّة، كما هو مستقل عنها في مصدر تمويله، فهو يعتمد على تبرعات المحسنين، واشتراكات الأولياء.

نورد هنا مقتطفات من كلام الأستاذ محمد علي دبور موضحاً بعض جوانب هذا التمييز والتطوير الذي عرفته المدارس الإصلاحية إذ يقول:
«من أنواع الإصلاح المهمة التي قام بها أعلام الإصلاح في الجزائر إصلاح التربية والتعليم العربي في الجزائر، لقد كانت التربية قاصرة لا تعني بكل النواحي في التلميذ، سيما عقله فتستعمله ليرقى وتمرنه ليتفتح، ولا تعلمه الشجاعة الأدبية والاعتماد على النفس والارتقاء بها... وكانت تلك التربية القديمة القاصرة لا تعني بفصاحة اللسان وبلاغه القلم وتكوين الذوق الأدبي في الطالب، وأكثر عنايتها بالذاكرة تحشوها بمحفوظات في العلوم لا يفهمها التلاميذ... فجاء أعلام الإصلاح... فاعتنوا بالتربية العقلية والخلاقية في معاهدهم فكانوا يستعملون عقول الطلبة في وقت الدرس بأساليبهم الحكيمة التي تستدعي عمل عقل الطالب ونشاطه... وعودهم قراءة الكتب الدسمة في الأدب والاجتماع والشريعة والتاريخ وغيرها، وأذاقهم حلاوة هذه الفنون في دروسهم... واعتنوا بالتربية الراسخة بإيحاءهم القوي وبالجو الديني الذي يملأ معاهدهم وبدروسهم في الشريعة»^(٥).

هذا عن مفهوم المدرسة القرآنية ومصطلحاتها، فماذا عن الجهود المبذولة لإقناع أفراد الشعب للالتحاق بها؟
٢ - تفاعل المجتمع مع التعليم القرآني:

مع مطلع العشرية الثالثة من القرن العشرين وبعد توقف الحرب العالمية الأولى انطلقت جهود الحركة الإصلاحية في ميدان التربية والتعليم، حيث كان الشعور العام مهيباً للدخول في دعاية واسعة لتصحيح جملة من المفاهيم الخاطئة

(٥) محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج ٣، ص ٨٠-٨١.

المترسبة في أذهان جماهير الناس حول التعليم، بفضل الأحداث العامة التي مرّت بها العالم ومرّت بها المنطقة، وبفضل الاحتكاك المباشر بالأوساط الخارجية، وبفضل الجهود السابقة للإصلاح.

شن مشايخ الحركة الإصلاحية دعاية واسعة استعملوا فيها منابر المساجد، واللقاءات والمناسبات والمحافل الاجتماعية المختلفة، وعقدوا الرحلات إلى مدن الشمال حيث توجد تجمعات التجار الميزابيين، لتصحيح النظرة الخاطئة عن التعليم وعن الجدوى منه، ومحاربة اللامبالاة به. حيث كان الناس في عمومهم لا يولون أي أهمية لتعليم أبنائهم، فلا يتابعونهم في دراستهم، ويزهدون في مواصلة تعليمهم ويقطعونهم وسط الطريق، وأحيانا في أوله، فيبقون محرومين منه، و يسارعون بهم إلى الأشغال والأعمال في حقول الفلاحة وفي المتاجر والحرف، فبقي عموم المجتمع ضعيف التكوين

يقول الشيخ أبو اليقظان عن هذه الحال: «إن أغلبية أبناء الأمة يرون أن السعادة والحياة لا تتوقف على العلم والتعليم، وإنما تتوقف على المال ووفرة الجاه، ولا دخل للعلم في العزّ والحياة، بل ربما رأى البعض العلم عائقا في سبيل تحصيل المال، وهذا هو السرّ في الزهد العام تقريبا من الأمة في العلم والرضا بالجهل»^(٦).

أضف إلى ذلك أن الحالة العامة للتعليم كانت متردية ضعيفة لا تلبي الطلب، وبقيت جامدة على حالها لم تشهد أي تطور لمدة زمنية طويلة.

استمرت هذه الحملة الدعائية الواسعة للحركة الإصلاحية خلال كل سنوات العشرينيات والثلاثينيات لإقناع الناس بجدوى التعليم، وعدم انغماسهم في الحياة المادية على حساب حياة العلم والأخذ بأسباب التمكين العصرية، كما كانوا في كثير من الأحيان يتصلون مباشرة بأرباب العائلات ورؤساء العشائر ليقتنعوا الأولياء بترك أحد الأبناء النجباء لمواصلة دراسته إذا لاحظوا عليه سمات التفوق والنبوغ والرغبة في الاستزادة من العلم وقدرته وحماسه لذلك، فينتزعونه من والده انتزاعا. وربما تتدخل عشيرته لإقناعه، وربما تتولى تحمل نفقات دراسته، وربما تتحمل نفقات أسرته إن كانت فقيرة غير قادرة على أن

(٦) أبو اليقظان: جريدة وادي ميزاب، عدد ١٠٥، تاريخ: ١٧/١٠/١٩٢٦.

تعمل نفسها^(٧). كان معظم موضوعات الدروس والاجتماعات خلال العشرينيات والثلاثينيات حول أهمية التعليم وجدواه، والتحذير من تضييعه والتقصير فيه. من جهة أخرى وجه أعلام الإصلاح حملتهم الدعائية إلى توعية الجماهير بضرورة تمويل هذه المدارس والمشاركة بتبرعاتهم واشتركاتهم لتغطية مصاريفها، فكانت دروس الشيخ (بيوض) تدعو للإنفاق بسخاء على بناء هياكلها وتجهيز أقسامها واستكمال مرافقها، وتغطية مصاريف إدارتها وصرف مرتبات معلميها وأساتذتها.

يقول الشيخ إبراهيم بيوض مخاطبا الجماهير في أحد اجتماعاته في بلدة غرداية سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٤م: «إخواني الأعزاء لقد رأيتم نتائج العلم الحميدة، فهل أنتم مستعدون لخدمته بصدق وإخلاص، هل أنتم مؤيدون مشاريعه بالإنفاق في سبيلها؟ ما للبعض يبخلون وتقبض أيديهم عن الإنفاق؟ لو أنفقنا عشر ما ننفقه على الشاي والقهوة... لوفرنا للعلم ومشاريعه ملايين كل سنة، ولبلغنا غايتنا منذ زمن بعيد. على المعلمين أن يُعلِّموا وعلى الآباء أن ينفقوا بسخاء. لم تقم هذه المدارس وأبنيتها الشامخة بلا شيء، ولا أدواتها اللازمة لها، وجهازها الضروري الغالي، أنفقوا على هذه المدارس والمعاهد قبل أن تتفقوا على ضروريات المعاش، اهتموا بأرواح أبنائكم قبل أن تهتموا بأجسامهم... إن الإنفاق في التعلم رأس الصدقة، وعبادة كبرى، وهو سبب الزيادة والبركة في المال وفي كل نعم الله للمنفق»^(٨).

مثل هذا الجهد وهذه الدعاية خلال هذه الفترة إحدى أبرز واجهات الحراك الاجتماعي، والنشاط الميداني واللقاءات الجماهيرية للحركة الإصلاحية.

لم تترك هذه المدارس حرة تزاوُل نشاطها، وتؤدي دورها، وتقوم بواجبها تجاه أفراد الشعب الجزائري، بل وجدت السلطات الاستعمارية تلاحقها وتحاصرها وتضيق عليها سبل العمل، حيث أصدرت تعليماتها لمنع أي نشاط للمدارس القرآنية العربية وغلق أبوابها، إلا برخص تسلمها مصالحها، ويتعسر بل يكاد يستحيل الحصول عليها. فكان الحكام المستعمرون يراقبون ويلاحقون

(٧) محمد علي دبوب: إعلام الإصلاح، ج ٣، ص ٨٠-٨١.

(٨) محمد علي دبوب: إعلام الإصلاح، ج ٤، ص ١٠٦-١٠٧.

ويغلقون ويغرمون ويسجنون ويعذبون.

كانت هذه المدارس بادئ أمرها تتشظى في جوّ مفعم بالتحديات، يحفّها الكثير من الحذر والمخاطر والمضايقات من الحكام العسكريين ومن أذناهم من قياد البلديات ومعاونيهم، فاضطر القائمون عليها لاستعمال أساليب المراوغات والحيل للتمويه على نشاطهم وللحفاظ على مدارسهم.

تارة كانت توهم الحكام العسكريين بأن مدارسها مجرد كتاتيب قرآنية تقليدية، كانت موجودة من ذي قبل، وتارة تفتحها بجوار المسجد لصيقة به؛ حتى تكون محسوبة على مرفقه وعلى نشاطه فتحفظ من المتابعة وتتجو من المراقبة. وتارة كانت تلجأ إلى مراقبة تحركات الحكام العسكريين وأعينهم، وبمجرد سماعها بزيارتهم للبلدة أو اقترابهم لناحية مدرستها فإنها تعلن في التلاميذ تعطل الدراسة، وتأمروهم بالبقاء في البيوت وعدم التجمع أمام المدرسة حتى تنتهي هذه الزيارة ويغادر الحاكم وأعينه البلدة أو المكان^(٩).

بعد هذا نأتي إلى ذكر أسماء المدارس التي تمكنت الحركة الإصلاحية من تأسيسها، وإلى عرض بعض إحصائياتها.

٣ - منجزات حركة الإصلاح في التعليم القرآني:

أثمرت الجهود المبذولة منجزات حضارية ضخمة في الميدان، مكّنت أجيالا متعاقبة من نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات إلى اليوم من نيل تكوين عميق وتربية مترنة في هذه المدارس العظيمة التي لا تزال تؤدي رسالتها، حيث فتحت في كل بلدة في وادي ميزاب مدرسة، وكذا في الكثير من مدن الجزائر حيث توجد أسر معتبرة مقيمة مع أبنائها مستقرة بها للعيش والعمل.

يحسن أن نعرض هنا تقرير الشيخ (بيوض) عن هذه المدارس، الذي أرسله في تاريخ: ربيع الأول ١٣٩٣هـ / ماي ١٩٧٣م إلى الدكتور رابح تركي بطلب منه عندما كان بصدد إعداد أطروحته حول التعليم القومي والشخصية الجزائرية في القاهرة، وهو يعود إلى أوائل الخمسينيات كما أشار الدكتور رابح تركي إلى ذلك^(١٠).

٩: إبراهيم بيوض: تقرير حول التعليم العربي، منشور ضمن كتاب: تركي: التعليم القومي، ص ٤٢١-٤٢٢.
(١٠) رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ١٩٣١-١٩٥٦م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ٣٩٥-٣٩٦.

التعليم القرآني في الجزائر ودوره في ترسيخ معالم الهوية العربية... د. قاسم الشيخ بالحاج

اسم المدرسة	عدد المعلمين	عدد التلاميذ
مدرسة غرداية	07	355
مدرسة بريان	03	253
مدرسة القرارة	16	614
مدرسة العطف	06	100
مدرسة بنورة	03	34
مدرسة مليكة	03	40
مدرسة بني يزقن	04	120
مدرسة قسنطينة	02	80
مدرسة بسكرة	02	54
مدرسة سطيف	02	32
مدرسة العلمة	01	35
مدرسة عنابة	02	40
مدرسة تبسة	01	19
مدرسة بوسعادة	01	19
مدرسة مستغانم	01	29
مدرسة تيارت	01	41
مدرسة سوق أهراس	01	30
مدرسة الجزائر	02	31
مدرسة بلكور	01	28
مدرسة البلدية	02	43
مدرسة غليزان	01	23

كما توجد مدرسة في كل من مدينة تقرت وجامعة والمغير وباتنة وسكيكدة

وبجاية والحراش ووهران وعين البيضاء والمنيعية وورقلة، إلا أن الشيخ بيوض لم يتمكن من ضبط إحصائياتها آنذاك^(١١).

بعد هذا نستعرض بعض جهود الحركة الإصلاحية في تطوير التعليم في المدارس القرآنية:

٤ - جهود حركة الإصلاح في تطوير التعليم القرآني:

بعد أن أثمرت الجهود مدارس مبنوثة في كل أرجاء الجزائر ووادي ميزاب واستطاعت أن تضم إلى صفوفها آلاف التلاميذ وعشرات المعلمين والأساتذة، فإن المشروع التربوي التعليمي قد كبر وتوسع وأصبح بحاجة مستمرة إلى المتابعة والتطوير للتحكم فيه والسير به نحو الأحسن دائما.

إذ أن جلّ المدرسين والمعلمين من تلاميذ الحركة الإصلاحية وخريجي معاهدها وبعثاتها في الخارج، لذا فإن الفكر والروح الذي يحمله هؤلاء هو فكر مقارب منسجم ينهل من منبع واحد هو الفكر الإصلاحي وتوجهات علمائه ومشايخه، إلا أن هؤلاء المعلمين كانوا ينشطون في مدارسهم بنوع من الحرية في تقرير البرامج واختيار المقررات، مع استفادة بعضهم من بعض، والتواصل الوثيق الذي كان يجمع بينهم. مع بقاء الإطار العام مشتركا متفقا عليه متمثلا في تدريس العلوم الشرعية والعربية والعصرية بطرائق حديثة وفق الجوانب التي استعرضناها سابقا.

إلا أن الحركة الإصلاحية رأت ضرورة مواكبة هذا التطور ورعايته ومتابعة مساره وضبطه أكثر، وعدم الجمود على المستوى نفسه الذي وصلته، وعدم البقاء على الوتيرة نفسها التي انطلقت منها، فأى مشروع أو عمل إذا لم يكن في زيادة مستمرة فهو في نقصان، والجمود على مستوى من النجاح يتحول مع الوقت إلى تأخر وفشل وإخفاق.

هذا ما جعلها ترى ضرورة إنشاء رابطة تربوية تجمع بين كل معلمي هذه المدارس ومديرها وتنظم لهم اجتماعات دورية، وملتقيات سنوية يندرسون فيها أوضاع التعليم ومستجداته، ويتبادلون فيها وجهات النظر حول إشكالياته، ويتعاونون على إيجاد حلول مشتركة لها، ويستفيدون من خبرات وتجارب

(١١) ربيع تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص ٣٩٥-٣٩٦.

بعضهم البعض. ففتحسن العملية التربوية وتتجدد أساليبها وتحل إشكالياتها^(١٢). كانت اجتماعات عامة تعقد في صانفة كل سنة في إحدى قرى وادي ميزاب يحضرها المعلمون من كل مدارس الإصلاح في أرجاء الجزائر، فيدوم ملتقاهم يومين كاملين يرعاه علماء الإصلاح ومشايخه وكبار أعيانه، فيكون حدثا عظيما، تُولى له أهمية كبرى، يخرج المجتمعون في الأخير باقتراحات وتوصيات عملية يلتزم الجميع بتطبيقها بداية من السنة الدراسية المقبلة^(١٣).

كما شهد هذا الجهد خطوة إضافية أخرى خلال الأربعينيات إذ استحدثت الحركة الإصلاحية قانون وحدة التعليم، الذي عمل على توحيد البرامج والمقررات نهائيا بين كل مدارس الحركة الإصلاحية^(١٤)، كما عينت مفتشا عاما لها هو الشيخ عدون شريفي يزور كل هذه المدارس ويطوف عليها مرة في كل سنة يعاين سير العملية التربوية ويتابع مدى التزام المعلمين والمديرين بتطبيق توصيات الملتقيات ونتائج أعمال وحدة التعليم، وينصح ويوجه ويرشد ويقوم نشاط المعلمين؛ خاصة الجدد منهم الذين يلتحقون بهذه المسيرة في كل سنة مع توسع حركة التعليم، وبعد ذلك يقدم تقريرا مفصلا عن كل هذه الزيارة، وعن ملاحظاته وتقويمه لكل مدرسة على حدة إلى الهيئات العرفية لوادي ميزاب، وإلى مشايخ الحركة الإصلاحية^(١٥).

هذه هي خلاصة جهود الحركة الإصلاحية في سبيل تطوير التعليم القرآني ومدارسه.

نأتي للتعريف بما يمكن أن يعدّ أقدم مدرسة قرآنية عرفها وادي ميزاب، والمتمثلة في مدرسة الشيخ إبراهيم أبي اليقظان ببلدة القرارة.

٥ - مدرسة الشيخ أبي اليقظان: نموذج لأقدم مدرسة قرآنية في وادي ميزاب:

في شهر جوان من عام ١٩١٥م فتحت أول مدرسة قرآنية أبوابها للتلاميذ في وادي ميزاب والتحق بها حوالي خمسة وثلاثون تلميذاً، وتولى التدريس فيها

(١٢) مجموعة من الأستاذة: القانون الأساسي لوحدة التعليم العربي بميزاب (الجزائر) واللجنة الداخلية.

(١٣) نور الدين سكال: الشيخ إبراهيم بيوض ومنهجه في الإصلاح، ١٨٩٩/١٥ ١٩٨٠م، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، معهد أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام، س ج: ١٩٩٤-١٩٩٥م. ص ١٠٢.

(١٤) مجموعة من الأستاذة: القانون الأساسي لوحدة التعليم العربي بميزاب (الجزائر) واللجنة الداخلية.

(١٥) سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطور ه، ط ١، المطبعة العربية، غرداية ١٩٨٩م. ص ٨٠-٨١.

الشيخ إبراهيم أبو اليقظان وتميّزت عن الكتابات الموجودة من قبل بما يلي:

- التدريس في سائر أوقات اليوم لمواد العلوم العربية والشرعية والحياتية

العصرية، التي تمثلت فيما يلي:

- تحفيظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

- تدريس العقيدة والسيرة والفقہ.

- تدريس القراءة والكتابة والنحو والأدب

- تحفيظ الأناشيد الوطنية

- تدريس تاريخ الجزائر والتاريخ الإباضي

- تدريس الجغرافيا والحساب.

كما كان لها حصة أسبوعية للرياضة البدنية يخرج فيها التلاميذ مع معلمهم

إلى ضواحي المدينة للقيام بالحركات الرياضية ولعب الكرة وتعلم الرماية

بالبنديقية^(١٦).

أما التطوير في أساليب التدريس، فكان الشيخ يركّز فيها على طرائق الفهم،

ولا يكتفي بالحفظ، فكان يردف حفظ الحديث بشرح معانيه وبإسقاطه على واقع

التلاميذ في حياتهم اليومية ويبين أثرها في سلوكهم ومعاملاتهم.

كما أن من أساليبه في التدريس التركيز على الجانب الأخلاقي في الشرح،

فينتقل من شرح الدرس في تخصّصه إلى بيان الأوجه العملية والآثار الأخلاقية،

فيركّز على توجيه التلاميذ وتهذيب أخلاقهم. كما أن من أساليبه التأكيد على فهم

الدرس بطريقة الحوار والنقاش وطرح الأسئلة واختبار قدرات التلاميذ وذكائهم

ومدى استيعابهم للشرح. كما كان يؤكّد كثيراً على مسألة الإتيان في العمل

التربوي، فإذا حفظ التلميذ آية أو حديثاً لا بدّ أن يتقن حفظه، وإذا فهم قاعدة أو

مسألة لا بد له من أن يتقن فهمه لها.

كما كان المعلم مع تلاميذه كالأب مع أبنائه في حبه لهم وعطفه عليهم

وتقربه إليهم، وصحبته لهم داخل المدرسة وخارجها في الشارع وفي السوق

وفي المسجد، حتى أحبّوه وتعلّقوا بشخصيته فأثر فيهم أيما تأثير.

فكان بذلك يعتني بالتربية في أبعادها الخلقية والعقدية الدينية والاجتماعية.

(١٦) سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ج٣،

فمن ذلك محاسبته لتلاميذه على أداء الصلوات جماعة في المسجد^(١٧). هذه أهم مميزات هذه المدرسة العصرية النموذجية التي بلا شك تظهر عليها الكثير من بصمات التجديد والتطوير والتميز عن التعليم التقليدي الذي كان سائدا في وادي ميزاب. كما تظهر عليها بوضوح بصمات التجربة التونسية في التعليم، التي عايشها الشيخ وعرفها عن كثب.

لقد ظهرت هذه المدرسة إلى الوجود في وقت كان فيه الحكم العسكري الفرنسي يراقب التعليم ويمنع أي تعليم يظهر خلاف تعليمه، وبخاصة فتح المدارس العربية غير المرخص لها، لمعرفته بخطورتها، ويستثني من ذلك الكتابات التقليدية التابعة للمساجد، التي تعمل خارج أوقات التعليم الفرنسي. لذا فإن مدرسة أبي اليقظان كانت تعدّ مدرسة خارج القانون ومخالفة للتوجهات الاستعمارية، فكان الشيخ ينتظر بين الحين والآخر أن يلحق به الأذى وبمدرسته، وكان يتخذ احتياطاته لذلك، وكان أعيان البلد يعينونه في ذلك، ويراقبون زيارات الحكام العسكريين إلى البلدة وأعانهم وينبهون.

فمن الاحتياطات التي اتخذها حتى لا يلفت انتباه الاستعمار إليه أنه لم يجهزها بالمناضد واكتفى بالسبورة الجماعية، فكان تلاميذه يجلسون على الحصير في الأرض ويكتبون في كراريسهم، حتى إذا داهمتها أعين الاستعمار وجدتها على شكل كتاب كسائر كتاتيب البلدة. وأخذاً بالحيلة والحذر أشار عليه بعض إخوانه الأعيان من إلغاء حصة التربية البدنية، وإخراج التلاميذ إلى أطراف البلدة لتعلم الرمي بالبندقية، فاستجاب لطلبهم^(١٨).

استمرت المدرسة في نشاطها لمدة سنة دراسية وبضعة أشهر، ثم قرّر الشيخ أبو اليقظان صاحب الفكرة والمشرف عليها توقيفها بعد مداولة الموضوع مع أعيان الإصلاح ومع أولياء التلاميذ، وتمثل عذره في عزمه على العودة إلى تونس لمواصلة مشواره الدراسي العالي في جامع الزيتونة، وكذا لأجل التحضير لبعث فكرة البعثات الطلابية من جديد لاستقبال أفواج كبيرة من الطلبة لمزاولة دراستهم في هذه المدارس العصرية المتطورة، ثم إكمال دراستهم في المعاهد التونسية، فتعم الفائدة أكبر عدد من الطلبة من كل أرجاء وادي ميزاب،

(١٧) محمد علي دبور: أعلام الإصلاح، ج٣، ص١٨٩-٢٠٥.

(١٨) محمد علي دبور: أعلام الإصلاح، ج٣، ص١٩٤.

فينالون العلم من منبعه المعين^(١٩).

تقبلوا الفكرة وتقبلوا عذره، أملين للشيخ أبي اليقظان التوفيق والنجاح في مشواره وفي فكره وطموحه ومشاريعه، التي ستعود بالخير العميم على الجميع. هكذا اختتمت هذه التجربة الرائدة القصيرة في عمرها، الغزيرة في مبنائها وفي ثمارها وفي تداعياتها.

هذه صورة موجزة عن هذا التعليم، الذي يُعد بلا شك حجر الزاوية والنواة الصلبة، التي أسس عليها بنيان المجتمع، وشكّلت شخصية أفراده وحفظته من الكثير من الانزلاقات الفكرية والانحرافات الأخلاقية. مما يقتضي التفكير بكثير من العمق للمزيد من الاعتناء بهذا التعليم وتطويره بما يخدم الرسالة نفسها ويحقق الأهداف المرجوة في هذا العالم المتجدد والمتغير والمتسارع.

٦ - ملامح التجديد في التعليم القرآني:

إذا أردنا تحديد ملامح التجديد في التعليم القرآني خلال عصرنا هذا فيمكن ضبطها في النقاط الآتية:

وقبل ذلك لا بد من الاعتراف بما يأتي:

- وجود جهود جبارة علمية ومادية مبذولة في الميدان من جهات مخصصة عديدة بقصد الرقي بهذا التعليم وتطويره بما يواكب مقتضيات العصر ومطوباته.

- وجود تجارب تربوية عديدة ناجحة في الميدان، ووجود كفايات نوعية في مختلف المدارس القرآنية، خاصة على مستوى ممارسة العملية التربوية التعليمية.

- قيام هذا التعليم - رغم كل المعوقات والصعوبات - بواجبه الحضاري ودوره الريادي في بناء الأنفس وإنشاء العقول وتكوين الأجيال بالتركيز على الجمع بين رسالتَي التربية والتعليم معاً، دون التفرقة في إحداهما.

لكن كل عمل بشري ينتابه النقص ويلحقه القصور، هذا ما يستدعي التفكير المستمر والعمل الدؤوب لأجل تفعيله وبعثه وإصلاحه؛ هذا الذي يمكن أن يتمثل في الجوانب الآتية:

- وضع فلسفة تربوية مشتركة بين كل المدارس القرآنية في وادي ميزاب

- وخارجه، تعمل على توضيح وضبط مبادئ هذا التعليم وأساسه وقيمه وأهدافه الكبرى.
- تفعيل التنسيق بين مدارس التعليم القرآني في وادي ميزاب وخارجه، للاستفادة من التجارب والخبرات، والتقارب على مستوى البرامج والمقررات والأهداف التربوية.
- إنشاء مجلس أعلى للتعليم القرآني على مستوى وادي ميزاب وخارجه، يضم ممثلي القرى والمدارس المختلفة.
- المزيد من الانفتاح على التجارب الوطنية والإسلامية في التعليم لأجل الاستفادة من خبراتها وتجاربها، وذلك من خلال ربط العلاقات وحضور المنتديات وتنظيم الندوات، واستقدام الكفايات، ومتابعة الإصدارات في مجال التربية والتعليم.
- إتمام عملية وضع المقررات والبرامج لكل المستويات وفي كل المواد. والاستفادة في ذلك من التجارب الميدانية الموجودة، التي من أهمها: مؤسسة الاستقامة في الجزائر العاصمة.
- العمل على (رسكلة) الإطار التربوي بإقرار برامج تكوينية سنوية، وتوفير الفرص وتسهيل الظروف لمواصلة التكوين الذي سيسهم في رفع المستوى.
- العمل على استقدام الكادر التربوي الكفاء المتخرج من الجامعات والحامل للشهادات، وكذا الاستفادة من الإطار المتقاعد؛ لأجل تطعيم هذا التعليم والرفع من مستوى الأداء فيه.
- العناية بالجانب الاجتماعي والمادي للإطار التربوي بما يضمن له الحياة الكريمة المستقرة، حتى يقدم عطاءً نوعياً أكثر في وظيفته التربوية المهمة.
- تركيز التعليم القرآني على مواد الهوية وما يخدمها والمتمثلة أساساً في: القرآن الكريم حفظاً وفهماً، الحديث النبوي الشريف، اللغة العربية، العقيدة، الفقه، التاريخ.
- التأكيد على أنّ التعليم القرآني مكمل للتعليم الرسمي وليس موازياً له، وذلك حتى لا يقع في تكرار تدريس بعض مواد أو العناية بالبعض الآخر بدعوى أهميتها أو ضعف التلاميذ فيها - مثل مادة الرياضيات أو العلوم أو

اللغات - على حساب المواد الرئيسة التي وُجد هذا التعليم لأجلها.
- العناية في تحفيظ القرآن الكريم بالجودة من حيث إتقان الحفظ بالأحكام والأداء الحسن، والعمل على تعميم ذلك على كل المستويات بصفة تدريجية.
- تطوير الجهاز الإداري لمؤسسات التعليم القرآني بما توصلت إليه علوم الإدارة من قواعد ومهارات وفنون، لأجل السير الحسن لهذه المؤسسات ومساعدتها في إنجاح العملية التربوية التعليمية.
هذه جملة فكر ومقترحات توضع بين يدي القائمين على التعليم القرآني والمهتمين به، للمزيد من دفع عجلة التطوير فيه نحو الأحسن والأجود بتضافر كل الجهود وتعاون كل الخيرين في هذه الأمة.

الخاتمة:

يتضح من العرض السابق كيف أن التعليم القرآني يمثل حجر الزاوية والنواة الصلبة التي أسس عليها بنيان المجتمع في وادي ميزاب في جانب رعاية الجيل الناشئ وإعداده لتحمل المسؤوليات في المستقبل.
حيث كان هذا التعليم يرسم ملامح الهوية ويكرس مفاهيمها في عقول الناشئة ويغرس قيمها في قلوبهم.
الأمر ذاته كان عليه الحال في أرجاء واسعة من الجزائر، من خلال جهود المصلحين مشرقاً ومغرباً.
لقد استطاع التعليم القرآني على الرغم من بساطة إمكانياته ومقدراته المادية أن يحفظ شخصية المجتمع الجزائري في بعدها الإسلامي ويصونها من الانزلاقات الفكرية والانحرافات الأخلاقية.
يجب على ولاة الأمور التمسك بهذا النوع من التعليم الأصيل والعمل على نشره بين أفراد الأمة، وتطويره بما يخدم حاجات الإنسان المعاصر ويستجيب لتطلعاته.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم أبو اليقطان: جريدة وادي ميزاب، عدد ١٠٥، تاريخ: ١٧/١٠/١٩٢٦م.
- بشير مرموري: تعليم البنات في ميزاب بين الأصالة والحداثة، دراسة لميكانيزمات التغيير في الواقع الاجتماعي، رسالة ماجستير، علم الاجتماع، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، س ج: ٢٠٠٠-٢٠٠١م.
- رابع تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ١٩٣١-١٩٥٦م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م.
- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ط١: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.
- سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطور، ط١، المطبعة العربية، غرداية ١٩٨٩م.
- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ١٩٣١ - ١٩٤٥م، ط١، نشر دار البعث، قسنطينة، ١٩٨١م.
- قاسم الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إياضية الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ٢٠١١م.
- لطيفة الحاج موسى: المدارس الحرة في بني يزقن خلال القرن العشرين، مذكرة تخرج، المعهد الجابري، بني يزقن، غرداية، س ج: ٢٠٠٤-٢٠٠٥م.
- مجموعة من الأساتذة: القانون الأساسي لوحدة التعليم العربي بميزاب (الجزائر) واللائحة الداخلية.
- محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج٣، ط١، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- مهدية طلاي: المدرسة الإباضية الحرة، دراسة حالة المدرسة الجابرية، مذكرة ليسانس، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، س ج: ١٩٩٢-١٩٩٣م.
- نور الدين سكال: الشيخ إبراهيم بيوض ومنهجه في الإصلاح، ١٨٩٩هـ / ١٩٨٠م، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، معهد أصول الدين، قسم الدعوة والإعلام، س ج: ١٩٩٤-١٩٩٥م.